المبحث الثالث

حدود تناول العلاقة بين العقيدة والأخلاق

ما من خلق أو سلوك إلا وله أساس عقدى مستقر في النفس ، بصرف النظر عما إذا كانت تلك العقيدة حق أم باطل ، حتى وإن تعلقت العقيدة بحب الدنيا واعتبارها البداية والنهاية ، فإن صاحبها يتوجه في سلوكه إلى كل ما يحفظ عليه متاع الدنيا وزينتها والمبالغة في الاستمتاع بها .

ونظراً لدقة وصعوبة الفصل بين الدين والأخلاق ، اعتبر بعض الفلاسفة العرب ، أن الدين والخلق ، كلاهما تعبير عن أمر واحد ، فقال :

«أما مصطلح أخلاق فمرده خلق ، ومعناه اللغوي السجية ، ويطلق على الدين والطبع ، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة ، وهى نفسه ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة . والخلق له أوصاف حسنة وقبيحة»[1].

وقريبا من هذا الرأي ، من يقول أن «علم الأخلاق اصطلاحيا وظيفته أن يضع المثل العليا للسلوك الإنساني ، لأنه يضع القواعد التى تحدد استقامة الأفعال الإنسانية وصوابها ، ويدرس الخير الأقصى باعتباره غاية الإنسان القصوى التى لا تكون وسيلة لغاية أبعد منها»[2].

ومفهوم غاية الخير الأقصى مرهون بقيم روحية باعثة ، ويصعب تصوره بغير عقيدة صحيحة ملزمة بالترغيب أو الترهيب ، والمؤمن ملتزم بغير شك بكل قيم التعامل من إتقان ووفاء بالعهد وأداء للحق والعدل وعدم الغش .. وغير ذلك ، ولكن بواعثه لا تنشأ من فراغ بداية ، وإنما تنشأ من رغبة وحرص على مرضاة الله ﷻ .. وهذا بعدّ عقدى .

ثم يكون باعثه اللاحق الرغبة في رضوان الله ﷻ وجنته والخوف من عقابه وشدة عذابه، وهذا بعد عقدى آخر ، وهكذا فإنه رغم اتحاد مظهر التصرف والسلوك الإنساني في الدنيا ، فإن بواعثه الإيمانية تختلف من فئة إلى أخرى بحسب عقيدتها ومدى إخلاصها في العمل بها .

وفى جميع التوجيهات التشريعية الثابتة في القرآن الكريم ، لا يخلوا أيا منها من بعد عقدى ، إما في السياق ، أو في التعقيب عليها بصفة ملازمة من أسماء الله الحسنى ، مثل صفة «عليم حكيم» في أغلب آيات الأحكام

---

١) المرجع الموسوعة العربية الميسرة – إشراف محمد شفيق غربال – دار الشعب ص٦٥

٢) الدكتور/ توفيق الطويل – أسس الفلسفة – الطبعة السابعة – دار النهضة العربية ، ١٩٧٩م ص٤٣٥

و«رؤوف رحيم» في ختام آيات الدعوة إلى التوبة والإنابة .. وهكذا.

وكمثال لتعانق العقيدة والأخلاق في التوجيهات الإسلامية ، يمكن الاستشهاد بآية توثيق الدين ، والتي جاء فيها قول الله ﷻ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَٱسْتَشْهِدُواْ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓاْ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[البقرة: ٢٨٢]

وبرغم أن التوجيه الأساسي في تلك الآية المباركة جاء في شأن مسألة إجرائية وهو توثيق الدين المدني خاصة بالكتابة ، إلا أنه بجانب التوجيهات الإجرائية في كيفية الكتابة ، جاء ذكر مجموعة من القيم العقدية والتوجيهات السلوكية .

أما أهم القيم العقدية فتمثلت في الجمل القرآنية التالية :

وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ

وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ

وَلَا تَسْـَٔمُوٓاْ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ

وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ

وأما أبرز القيم السلوكية فقد جاءت في قول الله ﷻ :

وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ

وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ

فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ

وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ

ومن هذا المثال القرآني يلاحظ أنه بصدد توثيق الدين بالكتابة ، جاءت في سياق آية واحدة توجيهات عقدية وأخرى سلوكية متعانقة في تآلف فريد مع التوجيه الإجرائي .. كل ذلك معا .

وعلى هذا النسق تلازمت العلاقة بين العقيدة والأخلاق مع الجوانب العملية فى كل ما يتصل بالاقتصاد الاسلامى .. فالموارد ينبغى الحرص على تنميتها التماساً لثواب الله ﷻ .. والعمل يجب مراقبة الله فى أدائه على وجه متقن .. والاستهلاك لا يصح فيه التبذير

﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾[الإسراء: ٢٧]

وفى التوزيع تؤدى الزكاة لمستحقيها التماسا للبركة والإخلاف، ولا ينظر إليها كتحويلات عديمة الجدوى .. أما تداول المعاملات فله جوانبه العقيدية وضوابطه الشرعية التى جاء تفصيلها فى كتب الفقه.

وقد عبر أحد العلماء عن ذلك التلازم بين العقيدة والأخلاق بقوله: «أن المسلم في سلوكه الاقتصادي ينطلق من الإيمان بالله ﷻ وقاعدة التوحيد له سبحانه وتعالى وأن كل شيء مملوك لله ﷻ إلى غير ذلك من المفاهيم التى ينطوى عليها علم العقيدة وإلى جانب ذلك فإنه وإن كان الجدل قائما في الفكر الاقتصادي الوضعي حول الأخلاق والاقتصاد منذ القرن السابع عشر وحتى الآن فإن هذه المسألة محسومة في الإسلام ذلك أن الإسلام يتكون من شعب ثلاث هى العقيدة والشريعة والأخلاق ، وبالتالى فإن من نقط المفاضلة بين الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعى هو أن الاقتصاد الإسلامي «قيمى» ومن هنا فإن علم الأخلاق الإسلامية بالنسبة للاقتصاد الإسلامي من مقترحاته الأولية ذلك أن نمط السلوك الإنساني للمسلم هو سلوك محكوم أساساً بالقيم الأخلاقية الإسلامية»[1].

---

١) الدكتور/ محمد عبد الحليم عمر – مركز صالح كامل للاقتصاد الإسلامي – التعامل مع مصادر البحث في الاقتصاد الإسلامي – ص٥٢

وعلى ذلك فإن البحث الحالى وإن كان يعطى الأولوية والأهمية لـذكر الباعـث العقـدى الإسلامي المتمثل في عقيـدة الإيمـان بـالله واليـوم الآخـر وأثرهـا في النـشاط الاقتـصادي ، فـإن التناول سيتعرض حتماً إلى الآثار الأخلاقية المنبثقة من تلك العقيدة والمصاحبة للـسلوك والأداء الاقتصادي.

العلاقة بين صحة الاعتقاد وعمق الالتزام الأخلاقي :

يأخذ الالتزام الأخلاقي لدى صاحب العقيدة أحد الاتجاهات التالية :

- يقين واثق بعقيدة صحيحة ، ينبثق عنه سلوك أخلاقي ملتزم في عموم التصرفات .
- يقين ضعيف بعقيدة صحيحة ، يأخذ مسلكاً أخلاقياً مضطرباً بين الخطأ والصواب .
- شك كامل في مصدر العقيدة .

وفى حالة الشك الكامل .. تكون هناك أخلاق ، إلا أن مبعثها أبعد مـا يكـون عـن القـيم الروحيـة ، وإنما تسعى لقيم «برجماتية» نفعية ذات أثر ظاهر في تحصيل منافع دنـيوية ، وتكـون الرغبة في إصلاح الحياة من أجل استبقاء متاع الدنيا وزينتها فحسب .

وبغير شك فإن العقيدة الصحيحة ذات المرجعية اليقينية الموثقة والمتمثلة في الإسلام ، هـى الأساس في سلامة وصدق وعمق وإخلاص الالتزام السلوكي لدى المسلم القـائم علـى مراقبـة الله والثقة في ثوابه والخوف من عقابه.

وإذا كانت الضوابط السلوكية في المجتمعات غير الإسلامية قد أتت ثماراً اقتصادية وافرة، فما كان ذلك إلا من أثر تجارب تاريخية عميقة ، أيقن بها رجال الأعمال أنه لا نجـاح ولا رواج لتجارتهم ونشاطهم بغير التزام بضوابط أخلاقية ثابتة تشكل لغة تفاهم أخلاقـي مـشترك بيـنهم وبين المتعاملين معهم ، حرصا على الدنيا من أجل الدنيا فحسب .

أما الأمر عند المسلمين فإنه مرهون بعودتهم المخلصة للعمل بكل التوجيهـات الإسـلامية فى مختلف أوجه الحياة ، بما يجمع لهم خير الدنيا وحسن ثواب الآخرة .